تفاوت السن بين الزوجين

لحضرة صاحب السعادة علي جمال الدين باشا

لست أدرى كيف غفلت عن هذا الموضوع أعين الناقدين فلم تتناوله بالايضاح والعرض أقلام الكاتبين ، كأنما هو من الأمور النادرة الوقوع أو الهينة الأثر ، أو كأنه ليس هو الأصل فى كثير من المآسى الاجتماعية المروعة التى تمزق اسماعها نياط القلب ويتصدع من بشاعتها الفؤاد .

هذا شيخ جاوز الستين أو أشرف عليها ، له من وفرة المال وضخامة اللقب مايغريه باستباحة جميع المتع وإن استعصى بعضها على الشيوخ ، ومحاولة اقتحام أبواب السعادات وإن أوصد بعضها فى وجوههم . وهذا شاب فى مطلع العمر وفى نضرة الشباب ، ولكنه قليل المال أو هو من حيث المنصب والجاه فى البداية ، ينشئ نفسه إنشاء ويبنى حياته كما يبنيها كل شاب . هذا الشيخ وذاك الفتى يتزاحمان على خطبة فتاة ، فيأخذ أدلها فى الموازنة بين الخاطبين ، ويضعون المال واللقب فى كفة والشباب والأمل فى كفة ، وما أكثر ماترجح الأولى ويؤثر الأهل الشيخ الثرى على الشاب المقل ، ويضعون بين ذراعيه وفى عهدة شيخوخته جمال ابنتهم وصباها ومستقبلها .

ويتعلل أبوها وأمها بأن فى الدنيا متعا غير متع القلب ولذائذ غير لذائذ الحب ، أو يقولان إن سنى الشيخ محدودة ومنيته دانية ، فما لنا لا نضيف الى مواردنا هذا المورد الفياض من ثروته الكبيرة ، وما لفتاتنا لاتصيب منه ميراثا سخيا ينفعها وينفع أولادها ؟

ولقد تسايرهما فتاتهما فى هذا الطمع ، ويأخذها ما أخذهما من سحر المال وفتنة الغنى وبهجة الزخرف والحلى والزينة والمتاع مما يستطيع الزوج الموسر أن يغدقه على زوجته ، فتخمد فى قلبها نداء الجنس وصوت الحياة ، ولا تصغى إلا الى نداء الترف وصوت الجاه . وتنعقد الصفقة وإنها لصفقة خاسرة : طمع وطيش من ناحية ، وغرور وأنانية من الناحية الأخرى .

فاذا ما احتواهما بيت الزوجية ، أخذت الفوارق تتجلى ومظاهر التباين تتعدد : فهذا جسم آخذ فى التكون تتقد فيه جذوة الشباب ، وذاك جسم آخذ فى الانحلال يدب فيه الفناء . هذا قلب مترعرع يتطلب الحب ، وذاك قلب أجدب فلا مرعى فيه لحب . وهذه روح فى بداية الربيع تتفتح للحياة وتهتف بالمنى وتستقبل الآمال ، وتلك روح فى نهاية العمر تودع الدنيا وتستدبر الأيام بما فيها من منى وآمال . ويلحظ الزوج بوادر فتور أو أمارات تململ فيحار فى تعليلها ويعجب كيف تفترعنه زوجته وما أمرت إلا أطاع ، وكيف تتململ بين

هذا الثراء وما عرف لها مطلبا إلا أداه . ثم يذهب فى تفسير ذلك كل المذاهب الا المذهب الواحد الصحيح ، وهو أنه عاجز عن إجابة الشباب الى مطلبه الأسمى وهو الشباب .

نعم إنه يذهب فى التفسير كل المذاهب ، ولكن يفوته أن الفتاة انما تبتغى فى الزواج الحب والمرح والأنس قبل كل شىء ، ثم تود لو يحاط كل هذا بشىء من الغنى والجاه . اما الغنى والجاه وحدهما فلا يعوضان عن الحب والمرح والأنس شيئا ، وان الزواج الذى لا نعمة فيه سواهما إنما هو جسم ضخم بلا روح ، أو إطار ثمين ليست فيه صورة .

ولقد يدرك الزوج هذه الحقيقة المرة ولكن بعد زمن طويل و بعد أزمات نفسانية قاسية . يدركها بعد أن يأنس من زوجته التراخى ثم الفتور ثم الصدود ثم السأم ثم عدم المبالاة ثم الانحراف عن الطريق المستقيم .

ان الزوجة الشابة تتلهى أول الأمر بزهاتها و زيناتها ومسكنها ومركبها و ولائمها وخدمها وكل ما يفيضه عليها مال الزوج الشيخ من مباهج الدنيا ، ولكنها لا تلبث أن تحس أن هناك شيئا ينقصها ، شيئا أرفع وأسمى من كل ما هى فيه ، وأن حاجتها إلى هذا الشىء أقوى من حاجتها إلى البذخ والزينة ، وأن هذا الشىء هو الشباب الذى يمتزج بشبابها ويحب حبها ويمرح مرحها ويؤمل آمالها وينشد معها نشيد السعادة ويرشف من كأسها وترشف من كأسه رحيق الحياة .

عندئذ يتبدى أمام عينيها شبح الحقيقة المخيف . عندئذ يتبين لها أنها أخطأت سبيل الهناء . عندئذ يتضح لها أنها ضحيت على مذبح الأسرة . عندئذ ترى نفسها فى سجن فيه مال وفيه جواهر وفيه لباس ورياش ، ولكنه سجن لا تحب البقاء فيه . وعندئذ يكون الطلاق أو الخروج عن طوق العفاف . وهنا تقع الكارثة وتبدأ المأساة .

أما الزوج فتظل أمانيه تتساقط أمام عينيه أمنية بعد أمنية . لقد كان يرجو الاستمتاع بالجسم الغض والقوام اللدن والمحيا الطلق والسمر الحلو والصحبة المسعدة ، فإذا هو أمام جسم يتلوى تقززا بين ذراعيه ، و إذا هو أمام المحيا العابس والجبين المقطب والحديث المتحفظ والصحبة المتكلفة والقلب المشرد . و إذا بهذا المسكين ينضح على تلك التعسة من كآبة شيخوخته بقدر ما كان يتمنى أن تفيض عليه من مرح صباها .

و يبدأ دور الشكوك والريب ، فيسائل نفسه : إذا لم يكن قلب امرأتى عامرا بحبى فمن ذا الذى يشغل هذا القلب ، و إذا كانت تمتنع عنى فلمن تتذر هذا الجسم ؟ و إذا كان فكرها مشتتا ففيمن عساها تفكر و إلى من تصبو ؟ وهكذا تظل الشكوك تساوره و يظل يعانى منها الغصص والآلام .

أية حياة هذه ؟ وأى خسران فى صفقات الزواج أفدح من هذا الخسران ؟ وأين هذا مما يطلب فى الزواج من هناءة وتعاون واتفاق فى الآمال ومشاطرة فى الهموم والمسئوليات ؟

وليس زواج الشاب بالمرأة المسنة من أجل مالها أقل خطرا ولا أهون ضررا مما وصفنا فى الحالة الأولى . فان هـذا الطامع الغبي يبيع نفسه بيعا رخيصا ويخضع رجولته وكرامته لسيطرة المـال فى يد امرأة . واست أعرف أذل ولا أحق بالسخرية والازدراء من شاب يطلع على الناس فى مظهر فخم وثيـاب فاخرة وجواهر غالية ، كل ذلك على حساب امرأة يتمتع بمـالها فى حياتها ويرجو فى قرارة نفسه لو تموت ليرثها .

وليس فى الدنيا أشد تحكما ولا أكثر عتوا ولا أحد غيرة من امرأة بلغت سن الكهولة بينما زوجها لا يزال فى معية الشباب . هذه المرأة تعيش فى ثورة دائمـا على الحياة التى سلبتها شبابها وجمالها ، وكلما امتدت بها الأيام ازدادت ثورتها عنفا وازدادت أخلاقها خشونة . فهى تروح عن نفسها بالغضب على من حولها وتفيض كآبتها وحزنها على بيتها وزوجها وأولادها . وهى تغار من لا شيء ومن كل شيء ، وتتوجس الريبة من صديقاتها وزائراتها وترى الخيانة فى كل امرأة تعرف زوجها ، والويل لهذا الزوج إذا تحدث عن جمال هذه أو رشاقة تلك من النسـاء اللاتى يصادفهن فى الطريق أو تربطهن بالبيت رابطة قرابة أو معرفة . وإنها لتبيت تساهر النجم وتحاول أن تمزق حجب الغيب لتعلم أسرار زوجها وخفايا سلوكه واتجاه عواطفه . وياما أكثر تأويلها لكل بادرة تبدر منه ، وياما أشد تعسفها فى تفسير كل حركة تصدر عنه .

ألا لعمرى إن هذا هو الجحيم بعينه فما أغنى الشباب عن هذا الجحيم !

وبعد فما أقصر نظر الأهل يقذفون بفتاتهم وهى فى العشرين من عمرها بين ذراعى زوج فى الخمسين ! إن السنين تجرى سراعا ، فإذا ما انقضت عشر سنوات على هذا الزواج كانت الفتاة قد بلغت عنفوان شبابها وأوج صباها ، وكان الزوج قد أمعن فى الانحدار والهبوط وشارف النهاية ، فتصبح ممرضة لشيخ يقاسى تباريح الربو أو يعانى آلام النقرس . فماذا يكون حظ هذين الزوجين من السعادة ، وماذا يكون حظ الحفاظ والعفاف والشرف بين مطالب الشباب وضعف الكبر ؟

وما أقصر نظر الشاب يرضى وهو فى الثلاثين من عمره بامرأة فى الخمسين من أجل مالهـا ، فلا تمضى عشر سنين حتى يرى نفسه حيال زوجة قد تجعدت بشرتها وغاض معين الحياة فى وجهها وباتت عجوزا لا يصلح العطار من أمرها ما أفسد الدهر ومافعلت الأيام . وهل ينتظر من رجل فى مثل هـذه الحال إلا أن ينشد خارج البيت مالا يجده فى البيت ، وإلا أن يبتز من مال زوجته ما يستهوى به الغانيات والخليلات ؟

ألا فليفكر فى ذلك فتياننا وفتياتنا قبل الاقدام على زواج شاذ تتفاوت فيه الأسنان تفاوتا كبيرا ، وليكونوا أبعد نظرا الى المستقبل ، فالمستقبل أقرب مما يظنون ، وليتق الله فى بناتهم أولئك الآباء الذين يدفعون بهن الى أحضان الشيوخ ابتغاء المـال والجاه ، فانهم انمـا يدفعون بهن الى مزالق الأخلاق بل الى الطريق المؤدية الى السقوط والفضيحة والعار .

على جمال الدين